الابوة والبنوة في شعر صدر الاسلام

د. عبدالله فتحي الظاهر*

الابوة والبنوة مصدران من الاب والابن كالعمومة والاخوة، والابـــوان، الاب والأم على التغليب، وكثيراً ما يقترن ذكر البر مع الوالدين والعقـــوق مـــع الابناء فقد قالوا: البر مع الابوة والعقوق مع البنوة [١] ، لذلك فإننا لم نجد الابـــوة بحاجة الى استجاشة الوجدان بمشاعر الحنان، لأن الفطرة التي فطر الله النـــاس عليها تتكفل وحدها في الابوين برعاية الاولاد والتضحية بكل شئ حتى بـــالذات، تقول أم السليك في ولدها الذي سبقها الى الموت وكانت تتمنى لـــو كـــانت هـــي الميتة بدله: [٢] ليت نفسي قدمت للمنايا بدلك

فالعاطفة مودعة بأمر الله في الابوين وهي كما تقـــول احـــدى شـــواعر العرب:

" وما الرئمان إلا بالنتاج" ذلك أنها افتقدت أمها بالموت ولم تبلغ زوج أبيها مبلـــغ أمها حنواً على صغارها لأنها.. كما تقول – لم تلدهم[٣] .

أما البنوة فلا شك بحاجة الى استجاشة المشاعر والوجدان لأنها لم تفطـــر فطرة الابوة على الحدب والحب والحنو الخاص فلو كانت كذلك لما نزل القـــرآن الكريم بالوصاة والتوكيد المتكرر... وصاة الناشئة النابتة بـــالجيل الذاهـــب فـــي أدبار الحياة، الجيل الذي غذاها نسغ الحياة حتى حال الشـــباب شـــيخوخة فانيـــة وشيبةً وضعفاً، والطفولة الضعيفة وشباباً وقوة.

لقد عرف العرب بالاهتمام بالذريات أيما إهتمام، فقـــد كـــانوا ينشـــؤون ابناءهم على مكارم الاخلاق من شجاعة وكرم وحب للبطولة وفصاحة وغيرهـــا، وكانوا غالباً ما يطلقون على ابنائهم أسماء توحي بالشدة والقوة والغلب من امثـــال

---

* جامعة الموصل

صخر واسامة واسد وثور ومرة وغيرها وكانوا يفاخرون بابنائهم وبخاصة حين يكونون في ازاء اعدائهم أبان الحروب والمنافرات، وفي مجالس اسمارهم وهم يستذكرون مفاخرهم، فهذا واحد منهم قرأناه يفاخر بابنه الدميث الشديد ويقول[٤]:

رأيت رباطاً حين تم شبابه ... وولى شبابي ليس في بره عتب

لنا جانب منه دميث وجانب ... اذا رامه الاعداء ممتنع صعب

وتأخذه عند المكارم هزة ... كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

ومما قرأناه من الاحاسيس الصادقة بمحبة الابناء والتعلق الشديد بهم ابيات لحطان بن المعلي يصف مشاعره ازاء ابنائه الصغار وحدبه الشديد عليهم وخوفه غوائل الزمن وجور الليالي، على الرغم من رضاه بحكم الله تعالى ... يقول[٥]:

انزلني الدهر على حكمه ... من شامخ عال الى خفض

وغالني الدهر بوفر الغنى ... فليس لي مال سوى عرضي

لولا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعض الى بعض

لكان لي مضطرب واسع ... في الارض ذات الطول والعرض

وانما اولادنا بيننا ... اكبادنا تمشي على الارض

لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني عن الغمض

وأب آخر يبث لواعج الفقد ويرفض لوم اللائمين على بكائه ابنه الفقيد فيقول[٦]

الام على تبكيه وألمسه فلا أجده

فكيف يلام محزون كبير فاته ولده

ولقد قرأنا عن كثيرين منهم مفاخرات بتربية البنات وبحسن صحبتهن واستنكار وأد البنات من أمثال صعصعة بن ناجية جد الفرزدق الذي كان يسمي محيي المؤودات، وكذلك زيد بن عمر بن نفيل الذي ذكر البخاري أنه كان يحي

المؤودة اذ يكفي أباها مؤونتها اذا كان فقيراً[٧] ... تلك هي الامة التي حملت رسالة الاسلام الى الآفاق ... حملها رجال منهم اتسعت مداركهم وارتقت عقولهم وسما تفكيرهم وتنوعت علاقاتهم بارحامهم وذويهم وذرياتهم، وهم على الرغم من ذلك كله كانوا من قبل كثيراً ما تسود جوانب من حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية قتامة وفوضى وصفات لا ترقى الى رفيع هممهم التي عرفوا بها، من ذلك: الوأد الذي كان يحدث في بعض بطون العرب-وهم قلة- نتاج امور شتى كالجدب حين احتباس الغيث، وقد يدفع بعضهم الى قتل بناتهم خوف العار الذي يتوقعون حصوله ان غزاهم غازي وسبا نساءهم...وعرف عن كثيرين منهم عقوق، والعقوق في النبوة-كما قالوا- ولقد ظل العقوق أشد قبحاً اذا كان الوالدان على درجة عالية من صدق الابوة، لتكون بنوة عاقة بازاء أبوة عبارة صادقة، فهذه أم ثواب تجبيها غلظة ابنها الذي طالما غذته بدرها وباتت على مهده مسهده تنتظره الدهور... وتباهي بحسن هيئته الاخريات..تقول[٨]:

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه	أم الطعام ترى في جلده زغبا
حتى اذا آض كالفحال شذ به	أباره ونفى عن متنه الكربا
أنشا يمزق أثوابي يؤدبني	أبعد شيبي عندي يتبغي الادبا

والامثلة على البنوة العاقة كثيرة في اشعار ما قبل الاسلام[٩] لان الوازع مقتصر على العرف وليس للدين أثر فلا دين سماوي ينهر البنوة أو يوجهها الوجهة الصحيحة ولذلك فقد وجدنا ضمور العقوق في ظل الاسلام لأن القرآن الكريم قد أعطى الابوة حقها من التقويم، والبنوة حظها من الحث والوصاة بالبر والاحسان، قال تعالى: "ووصينا الانسان بوالديه حسناً" (العنكبوت : ٨) نزلت هذه الاية الكريمة في سعد بن أبي وقاص وأمه حمنة بنت أبي سفيان، وكان بها باراً، فقد حاولت منعه من الدخول في الاسلام بطرق شتى حتى احجمت عن الاكل حتى الموت ان هو لم يعد الى ملة آبائه غير أن سعداً لم تثنه محاولات

أمه عن المضي في سبيله القويم، فقد أثر عنه أنه قال لها:" يا أماه لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني، فكلي إن شئت، وإن شئت لا تأكلي" فلما أيست منه أكلت وشربت[١٠]، فأنزل الله تعالى قوله آمراً بالبر بالوالدين والاحسان اليهما وبعدم اطاعتهما إن أمراه بالاشراك، وبهذا يتنصر الايمان على فتنة الرحم والقرابة مع استيفاء البر والاحسان... قال تعالى :" ووصينا الانسان بوالديه، حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك الي المصير" (لقمان: ١٤) ذلك هو لقمان الحكيم الذي خبر الحياة فهو يعظ ولده وينقل اليه تجاربه... وفي القرآن الكريم صور جميلة للابوة الصادقة والبنوة البارة الصادقةمنها موقف أبي الانبياء ابراهيم عليه السلام من أمر الله تعالى بذبح ابنه اسماعيل عليه السلام، فقد عزم النبي ابراهيم عليه السلام على تنفيذ الامر الآلهي بتقريب ابنه عليه السلام لله تعالى، غير أن الله تعالى، كشف عنهما الغمة فنودي " أن يا ابراهيم * قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين" (الصافات: ١٠٤-١٠٥) لقد كان -لا شك- امتحاناً صعباً اجتازه رجلان نبيان عظيمان، أب لم يتردد بين نداء عاطفة الابوة وصوت الوحي الالهي، وابن بار لم يتمرد على أمر يحقق البنوة البارة له ازاء ابيه والعبودية الصالحة الصادقة لله تعالى، وما كان ذلك الا لرسوخ اليقين الالهي في نفسيهما وانحسار عوامل التردد التي كثيراً ما تعتري الانسان ابان حالات من الضعف البشري...

وفي السنة المطهرة وصايا كثيرة تؤكد مكانة الوالدين ووجوب البر بهما ولقد أخذ الامر ببرهما صفة الوجوب الحتمي مما جعل المؤمن يلتزم به وبخاصة حين علم ان عقوقهما كبيرة من الكبائر توجب هلاكه[١١] .

اننا لم نجد أمة حافظت على فضيلة البر كأمة الاسلام[١٢] لان البر بهما جهاد الزم المؤمن الايمان بقدسية هذه العلاقة والعمل بمقتضى الاوامر الالهية والنبوية، ولقد عدمنا وجود شكاوى جراء عقوق حقيقي في تاريخنا الزاهر تشهد

بها اشعار صدر الاسلام الا النزر اليسير، وكذلك لم نجد مواقف سجلها الشعر لابناء عاقين لندرة هذه المواقف، غير اننا وقفنا على لوحات عديدة بث من خلالها عدد من الاباء نفثات حرى تصور الشكوى من الابناء ومن عقوقهم- بحسب رؤية الاباء- ووقفنا في ازاء تلك اللوحات على مواقف لابناء كانت تمليها عليهم عقيدة سليمة ويقين راسخ وولاء صادق لله وللاسلام.

ان هؤلاء الابناء لم يكونوا على الحقيقة عاقين، ولم تكن شكاوى آبائهم الا ما جاشت به أفئدة ملتاعة اضطرمت حين فراقها فلذاتها ارسلتها تلك القلوب من فورها صادقة الى مسامع القادة عليها تعيد النازح البعيد أو تمنع من نوى الخروج عن البلاد... الخروج الى حيث الجهاد.. إنهم كانوا يرون في هذا الابتعاد عقوقاً..، وهذا لا يمنع وجود عقوق على الحقيقة الا انه بازاء البر قليل...

لقد توزعت مشاعر هؤلاء الاباء ازاء ابنائهم بين الشكوى والعتاب وبين بث لواعج الشوق والفخر والرثاء.

أما الابناء فلهم مواقفهم من آبائهم إما ببث مشاعر الفخر أو ببذل أقصى غايات الجهد للوفاء بحقوقهم في هذه الدنيا أو بالرثاء الصادق، وهي مواقف كثيرة سجل الشعر بعضها...

مشاعر الاباء :

مما ورد من شكاوى الآباء كلمة لأبي العباس الاعمى انشدها بحضرة النبي﴿ﷺ﴾ يشكو فيها ابنه اليه ﴿ﷺ﴾ منها[١٣]:

غدوتك مولوداً وعلتك يافعاً ... تعل بما ادني اليك وتنهل
اذا ليلة نابتك بالشكو ولم أبت ... لشكواك إلا ساهراً أتململ
تخاف الردى نفسي عليك وانها ... لتعلم ان الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي ... اليها مدى ما كنت فيك أؤمل

جعلت جزائي منك جبها وغلظة كأنك أنت المنعم المتفضل

فليتك اذ لم ترع حق أبوتي فعلت كما الجار المجاور يفعل

لقد كان الاب ينتظر ثمرة غرسه اليانع الذي امتص رحيقه وعافيته واهتمامه غير أن الابن نسي ذلك كله واندفع الى الامام... الى حيث الحياة المقبلة... الزوجة والابناء معرضاً عن جلالة الشيخوخة وضعف الكبر وحق الابوة، ولم يعمل فيه التجاء الاب الشيخ الى ظل من الشكوى حسبه وارفاً، ولم تعمل فيه استجاشة الوجدان بالمشاعر الصادقة، فلم يجد الاب الا اعراضاً وصداً وعقوقاً، كل اولئك أفاض حسرات بانات شاكية من قريحة جادت بها سجية ألاب المحزون...

وبعد هذه الشكوى لنقرأ مشاعر أخرى لأب عقّه ابنه على الحقيقة... انها مشاعر فرعان بن الاعرف في ابنه منازل، ذلك الابن العاق الذي ظل يشكوه ابوه الى الاخرين حتى أوصل شكواه الى الخليفة عمر بن الخطاب ﴿رضي الله عنه﴾ فقال فيه:[١٤]

جزت رحم بيني وبين منازل جزاءً كما يستنزل الدين طالبه

لربيته حتى اذا آض شيظماً يكاد يساوي غارب الفحل غاريه

وربيته حتى اذا ما تركته أخا القوم واستغنى عن المسح شاربه

تغمد حقي ظالماً ولوى يدي لوى يده الله الذي هو غالبه

وكان له عندي اذا جاع أو بكى على الزاد أحلى زادنا واطايبه

أإن ارعشت كفا ابيك واصبحت يداك يدي ليث فانك ضاربه!؟

وجمعتها دهماً جلاداً كأنها اشاء نخيل لم تقطع جوانبه..

فأخرجني منها سليباً كأنني حسام يمان فارقته مضاربه!

لعمري ان هذا لهو العقوق بعينه... أب فان أهمله الاجل حتى ادركه الكبر والشيخوخة والضعف...أب قدم لإبنه كل وسائل الحياة، الابن الصغير... ثم الفتى، الاب الذي حين كان في عنفوان الحيوية والشباب كان يصطنعه لنفسه... لايام ضعفه، فلقد افرغ جعبته كلها وكلت يداه عن مدافعة الايام وامتلأت المزادة واتسعت رقعة النعيم فحليت الدنيا في عيني الفتى الشاب فعميتا عن رؤية صاحب هذا النعيم الذي جمع فأوعى، فحازه لنفسه وأبعده أباه عنه... انه الابن العاق الذي لم يرع حق الابوة بل الانسانية وإنه للعقوق...

ولكن هذا الاب – كما تحكي عنه مصادر التاريخ- كان لصاً يوم كان شاباً ثم فلم تنصقل في ظلال الاسلام حياته ولم يهيئ نفسه لجلائل الاعمال ولم ينشئ ابنه –كما يبدو– على قيم هذا الدين فكان الخرق الذي كان...

ولعل من المفيد ذكره ان منازلاً هذا كان له ابن يقال له خليج فعق خليج أباه فقدمه الى ابراهيم بن عربي مستعدياً عليه فقال:

تظلمني حقي خليج وعقني على حين كانت كالحني عظامي

وهي خمسة ابيات، فاراد ابراهيم بن عربي ضربه، فقال خليج: أصلح الله الامير، لا تعجل، أتعرف هذا؟ قال: لا ، قال: هذا منازل بن فرعان الذي عق اباه وفيه يقول:

جزت رحم بيني وبين منازل... الابيات، فقال ابراهيم: يا هذا عققت فعققت فما أعلم لك مثلا: لا قول خالد لابي ذؤيب:

فلا تجزعن عن سيرة أنت سرتها فأول راضي سيرة من يسيرها [١٥]

وفي الشكوى من فراق الابناء نقرأ شعراً لأمية بن الحرثان الاسكر يتقدم به الى الخليفة عمر بن ابي الخطاب ﴿رضي الله عنه﴾ ضد ابنه كلاب الذي رأى في خروجه مجاهداً في ركب المجاهدين هجراً له ولأمه.. فلقد حاولا معه أن يمكث معهما ولكنه لم يلتفت الى نصحهما، ولعل مما زاد من حزنهما ان أخاً له من

قبل قد هجرهما حتى ضاقت عليهما الدنيا بما رحبت، فهما شيخان كبيران محتاجان الى من يمكث معهما يقوم على خدمتها، ولذا فقد توجه الشيخ الاب الى زوجه مخاطبها بقوله: (١٦)

يا أم هيثم ماذا قلت أبلاني	ريب المنون وهذان الجديدان
أما ترى حجري قد رك جانبه	فقد يسرك صلباً غير كذان
أما تريني لا امضي الى سفر	الا معي واحد منهم واثنان
يا أبني امية اني عنكما غان	وما الغنى غير اني مرعش فان
يا أبني امية ان لا تشهدا كبري	فان نايكما والثكل مثلان

ويمضي اميه هذا في حديثه عن فراق ولديه ويلح في ذكر كلاب ابنه الاكبر حتى أوصل بعض شعره هذا الى مسامع الخليفة عمر بن الخطاب ﴿رضي الله عنه﴾ وكانت كلمة صادقة اثارت في نفس امير المؤمنين الالم فحقق للشيخ امنيته ومن كلمته التي اوصلها الى سمع امير المؤمنين قوله: (١٧)

لمن شيخان قد نشدا كلابا	كتاب الله ان رقب الكتابا
تنفض مهده شغفاً عليه	وتجنبه اباعرنا الصعابا
اذا هتفت حمامة بطن واد	على بيضاتها دعوَا كلابا
تركت اباك مرعشةً يداه	وامك ما تسيغ لها شراباً...

ولقد انشد شكواه في حضرة الخليفة ﴿رضي الله عنه﴾ ، ولعلنا نتصور قلق الاب وهو يقرأ ابياته بحشرجات الشيخ المحزون المنكوب فتراه يصف كلاباً ببيت ثم يلتفت الى الخليفة فيشير الى ما صنعه به ابنه حين تركه ورحل وهو آمل باستجابة أمير المؤمنين لطلبه... وكان ان استجاب الخليفة العادل له بعد ان سمع شكواه فكتب الى سعد بن ابي وقاص أن رَحل كلاب ابنُ امية، فرَحله سعد، فقدم على عمر بن الخطاب ﴿رضي الله عنه﴾، فأمر به فأدخل ثم أرسل الى ابيه فتحدث معه

ساعة... ثم قال: يا أبا كلاب ما أحب الاشياء اليك اليوم؟ قال: ما أحب اليوم شيئاً، ما أفرح بخير ولا يسوؤني شر، فقال عمر ﴿رضي الله عنه﴾: بلى علي ذلك؟! قال: بلى كلاب أحب أنه عندي فأشمه، فأمر بكلاب فأخرج اليه، فلما رآه الشيخ وثب اليه فجعل يشمه ويبكي ، وجعل عمر ﴿رضي الله عنه﴾ يبكي معه[١٨]، وكذلك كان حال المخبل السعدي الذي رحل ابنه شيبان في جيش سعد ﴿رضي الله عنه﴾، الى بلاد فارس مجاهدا وحاول منعه فلم يفلح فأرسل اليه كلمة يصف فيها سوء حاله وما اعتراه من الم الفقد يستدر بها عاطفته ويستجيش حنانه بل يعلمه انه ارتكب حوباً كبيراً يوم هجر اباه... ولكن صرخات الاب المكدودة لم تثن قناة الابن الشاب المجاهد، فلم يترك ساحة الجهاد الواجب تلبية لنداء الابوة، وهاكم بعض كلمته[١٩]

أيهلكني شيبان في كل ليلة ... لقلبي من خوف الفراق وجيب

ويخبرني شيبان ان لم يعقني ... تعق اذا فارقتني وتحوب

فان يك غصني اصبح اليوم باليا ... وغصنك من ماء الشباب، طيب

فاني حنت ظهري خطوب تتابعت ... فمشيي ضعيف في الرجال دبيب

اننا لن نقرأ في شعر هذا الرجل إلا استجاشة لعواطف ابنه، فلم يدع عليه دعاء فرعان بن الاعرف على ولده منازل أو يقسو قسوة غيره على ولده... إنه يرى في كلامه حجة فهو شيخ فان ولده على ولده حق، ولقد كان له ولامثاله ما أرادوا فبقاء الابناء الى جانب الاباء جهاد... وكذلك كان حال ذريح بن الحارث فقد جزع لفراق ابنه الحباب وشق عليه البعد فراح يبعث بنفثات حزينة اليه عله ينتهي اليه شعره فيعود اليه.

وكان حال ابي خراش كحال سابقيه حين رحل عنه ابنه الى حيث الجهاد...أما حكيم بن قبيصة فانه يعاتب ابنه بشراً الذي فارقه الى المدينة مهاجراً يبتغي رضاء الله تعالى وجنة الفردوس، غير ان اباه لم يكن يرى ذلك... انه يرى أن بشراً هاجر طلباً للدنيا وطيب عيش الامصار وفيه يقول: [٢٠]

لعمر ابي بشر لقد خانه بشر على ساعة فيها الى صاحب فقر
فما جنة الفردوس هاجرت تبتغي ولكن دعاك الخبز احسب والتمر

ثم يبني حكماً على ما يراه هو فيقول:

أقرص تصلي ظهره بعطيه بتنورها حتى يطير له قشر-
أحب اليك أم لقاح كثيرة معطفة فيها الجليلة والبكر؟!

إن الرجل حكيماً ليس صادقاً في زعمه لأن بشراً هاجر مفارقاً دين آبائه وأجداده ولم يكن أبوه الا مشركاً فقد ادرك الاسلام ولم يسلم... فكيف تراه يحكم على ابنه المجاهد المهاجر بحب الدنيا، وانه لم يكن يبتغي بفراقه جزاء الله تعالى...؟!

وهكذا فقد وجدنا اباء يشكون ألم الفراق فمنهم من يرى عقوق ابنه ومنهم من يقر بفعلة ابنه غير أنه يستضعفه ليعود اليه ومنهم من يرسل باشعاره الى القادة مستعطفا... والحقيقة ان أغلب هؤلاء الابناء لم يكونوا عاقين بل كانوا مجاهدين ولم تثنهم ارتباطاتهم الاسرية وعاطفة الابوة الجياشة والبنوة البارة عن الجهاد والهجرة....

لذلك كانوا يزدادون ثباتاً على المبدأ أمام تلك العواطف حتى جاء بعضهم الامر الحاسم من لدن رسول الله الاعظم محمد ﴿ﷺ﴾ فقد جعل جهاد هؤلاء في امتثالهم لصوت الابوة الصادق، فأعاد كل ابن وحيد الى ابويه يجاهد في طاعتهما، فقد روي انه ﴿ﷺ﴾ أعاد اعداداً من أمثال هؤلاء الأبناء الى ابائهم، وأوصاهم بهم خيراً ومن ذلك قوله ﴿ﷺ﴾ لأحدهم في أمه " الزم رجلها فثم الجنة"[٢١]، وأجاب أحد هؤلاء المجاهدين بقوله :" .... ففيهما فجاهد"[٢٢] وفي رواية قال :" فارجع الى والديك فأحسن صحبتهما"[٢٣] وسار خلفاؤه رضي الله عنهم على نهجه المحمود وأعادوا المعذورين الى ذويهم يقومون عليهم ويجاهدون فيهم.

أما شعر الفخر بالابناء ومدافعة من يحاول قهرهم أو إذلالهم، فقد ورد منه شيئ غير قليل منه كلمة لعمرو بن شأس في عرار ابنه فقد كانت زوجته كثيراً تعير ابنه لسواد لحقه من امه، وكان عرار يتألم من كلمات زوج ابيه فيشكو ذلك لأبيه، حتى آذت كلمات المرأة أبا عرار فأنشأ يقول [٢٤]:

أرادت عرارا بالهوان ومن يرد عراراً لعمري بالهوان فقد ظلم
وان عراراً لم يكن ذا شكيمة تقاسينها منه فما املك الشيم
وان عراراً ان يكن غير واضح فاني أحب الجون ذا المنكب العمم

وقد جهد الرجل في منع زوجه فلم يفلح حتى طلقها لاجل ابنه... ومن ذلك مفاخرة أبي حندج بابنه الذي يرى فيه الكرم والشجاعة والقوة والحيوية نذكر منها قوله:[٢٥]

لا تعذلي في حندج ان حندجاً وليت عفرين لدي سواء
حميت على العهار اطهار أمه وبعض الرجال المدعين غثاء
فجاءت به سبط البنان كأنما عمامته بين الرجال لواء

ومن ذلك مفاخرة ذريح بن الحارث بابنه الحباب الذي استشهد في قتال الفرس....يقول فيه: [٢٦]

أبغي الحباب في الجهاد ولا ارى له شبهاً ما دام لله ساجد
وكان الحباب كالشهاب حياته وكل شهاب لا محالة خالد

إنه يراه خالداً وخلوده في نظره بقاؤه في وجدانه بقاء الشهب في الحياة الدنيا وهو –كما يراه ابوه– صائر الى جنات الخلد ما دام مقيماً لشعائر الله تعالى.

ومن مشاعر الفقد والحزن على الابناء حين موتهم او استشهادهم كلمة لابي ذؤيب الهذلي فقد استشهد ابناؤه في شمال افريقيا زمن الخليفة عثمان بن عفان ﴿رضي الله عنه﴾ مجاهدين فهد الفقد جسده، واصفرت شواته ونالت منه المصيبة

حتى اسلمته للموت، وقد رسم الشاعر الاب لوحة هي من أدق ما وصفت فيه مشاعر الفقد والحزن مؤكداً في ذلك كله حتمية الموت بعد أن صور عن طريق معركة دامية بين صائد وكلابه مع مجموعة حمر وحشية لم يمهلها الصائد وكلابه كما لم يمهل الموت ابناءه بعد ان رووا بالجهاد حاجة انفسهم ولبوا نداء الجهاد فنهلوا من رحمة الله ما شاء الله لهم ان ينهلوا وكان داعي الموت اليهم اسرع منهم الى العود الى ديارهم، وعاد أبوهم وقد غادروا فأستعد هو الآخر للرحيل... ورحل... ومن قصيدته العينية تلك نذكر قوله على لسان زوجه أو إمرأة اخرى غيرها : (٢٧)

أمن المنون وريبه تتوجع — والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت اميمة ما لجسمك شاحباً — منذ ابتذلت ومثل ما لك ينفع
أم ما لجسمك لا يفارق مضجعاً — إلا أقض عليك ذاك المضجع

فأجاب المرأة:

فأجبتها أن ما لجسمي أنه — أودى بني من البلاد ووديعوا
أودى بني وأعقبوني غصةً — بعد الرقاد وعبرة لا تقلع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب — وأخال أني لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن ادافع عنهم — وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها — ألفيت كل تميمة لا تنفع

ويمضي في تصوير حالته متخذاً أمثلة من الطبيعة حتى يصير الى آخر مشاهدها مؤكداً حتمية الفراق...

أما ما جاء من شعر الاستعطاف واستجاشة حنان القادة وعطفهم في شأن أبنائهم قول للحطيئة أرسله الى الخليفة عمر ﴿رضي الله عنه﴾ وكان سجنه لاستعداء الزبرقان عليه : (٢٨)

ماذا تقول لافراخ بذي مرخ — حمر الحواصل لا ماء ولا شجر

غيبت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر

فامنن على صبية بالرمل مسكنهم بين الاباطح يغشاهم بها القرر

فلما وصلت الابيات مسامع امير المؤمنين رق لحال اطفاله وهو اللمـــاح دقيق الحس فاطلق حريته جراء صدق عواطف الابوة.

مشاعر الابناء:

للابناء مشاعرهم وعواطفهم كذلك، ولهم مواقف سجلها الشعر، غير انها لا تصل الى ما وصلت اليه اشعار الاباء في ابنائهم مـــن حيـــث الكـــثرة، وقـــد توزعت مشاعر الابناء ازاء والديهم بين بث مشاعر الفخر وبذل أقصى غايـــات الجهد للوفاء بحقوقهم في هذه الدنيا وبين الرثاء الصادق،وهذه المواقـــف كثـــيرة سجل الشاعر نتفاً منها، وقد غلب عليها شعر المقطعات وبخاصة في الرثاء ومن ذلك كلمة للسيدة فاطمة ﴿رضي الله عنها﴾ تصف مشاعر الحزن على فقد والدها العظيـــم فتشرك بعض مظاهر الطبيعة مصابها فتقول: [٢٩]

اغبر آفاق السماء وكورت شمس النهار واظلم العصران

فالارض من بعد النبي كئيبة أسفاً عليه كثيرة الرجفان

فليبكه شرق البلاد وغربها ولتبكه مصر وكل يمان

ولبيكه الطود المعظم جود والبيت ذو الاستار والاركان

وفيه تقول كذلك[٣٠]:

ما ضر من قد شم تربة أحمد ألا يشم مدى الزمان غواليا

صبت علي مصائب لو أنها صبت على الايام صرن لياليا

ومما قرأنا عن جيل الصحابة من البر بالآباء كثير إلا أن الشعر صـــور لنا بعض ذلك ومنه أن رجلاً من الاعراب قصد مكة لأداء فريضة الحج وكـــان يحمل أمه لكبر سنها معرضاً عما كان يفعله الآخرون من حمل الشـــيوخ علـــى الدواب... لم يحمل أمه على مطية بل جعل ظهره لها مطية خوفـــاً عليـــها مـــن

السقوط إذا نفرت الدابة -وكثيراً ما كان يحصل هذا الامر- وطاف بها ملبياً ثم مرتجزاً: (٣١)

إني لها مطية لا أنفر

إذا الركاب ذعرت لا أذعر

ما حملت وارضعتني أكثر

ثم: لبيك اللهم لبيك....

وكان الصحابيان الجليلان عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب ﴿رضي الله عنه﴾ ينظران حال الرجل مع امه فالتفت علي (كرم الله وجهه) الى عمر ﴿رضي الله عنه﴾ وقال:" يا أبا حفص اخل بنا الطواف لعل الرحمة تنزل فتعمنا" أليس في رجاء هذين الرجلين ما يوحي بصدق بنوة الرجل وبصدق مشاعره؟! انها لمشاعر صادقة بثها الابن، فقد آمن فأدى الفريضة ثم ادى ما لإمه من حق يستطيعه براً بها أو ببعض حقوقها، فقد روي أنه التفت الى عبدالله بن عباس ﴿رضي الله عنه﴾ فقال :" أتراني قضيت حقها؟! فقال عبدالله بن عباس ﴿رضي الله عنه﴾ " لا والله ولا طلقة من طلقاتها"(٣٢).

إن الامثلة على البنوة البارة كثيرة وبخاصة لدى ابناء ذلك العصر ... عصر النبوة العبق الرائق المبارك، غير ان الشعر لم يسجل كل ما قيل أو فعل، أما أمثلة الابوة فأكثر، كما رأينا من خلال هذه الدراسة. ولعل من الجدير بالاشارة انه من خلال قراءة طائفة من اشعار الابوة والبنوة ودراسة عواطفها واساليبها واخيلتها التي راعت مقتضيات الاحوال، وتوظيف بعض هذه الاشعار في هذا البحث، اتضحت لنا ابعاد معاناة حقيقية هي أس التجربة الشعرية الصادقة التي جاءت اشعاراً معبرة بصدق عن مشاعرهم للذي كان من تناغم وثيق بين الاب ومشاعره أزاء ابنه المفارق أو العاق، وبين مشاعر الابن أزاء ابيه المفارق او اللائم، أو بين الشاعر والحدث، لأن الحدث ألهمه تلك النفثات،

وأتضح أن العاطفة كانت قائمة فيها بكل معانيها، غير انها كانت تشتد وتقوى تارة وخاصة في أغلب اشعار الاباء، حتى ليحس القارئ فيها الدفق العاطفي النبيل بوضوح، ففي قصيدة ابي العباس الاعمى –مثلاً– التي منها قوله:

اذا ليلية ناتيك بالشكو لم أبت لشكواك إلا ساهراً أتململ

نرى الاب هو المسهد المشتكي لشكوى ولده بثاً وحزناً بل لربما كانت معاناته أعظم من معاناة ولده المريض.... أما أمية بن الحرثان فقد كان يرى في سفر ولديه ثقلاً ولد حزنا مضاعفاً أقض عليه مضجعه لأن ولديه ابيا ان يبقيا معه ويشهدا ايامه التي كان فيها اليهما محتاجا.... يقول:

يا بني أمية ان لا تشهدا كبري

فان نايكما والتكل مثلان

ومن تلك العواطف الحزينة ما نقرأه في قول غيلان بن سلمه يصف فيه ارقه المستديم وحزنه البالغ لفقده ولده: (٣٣)

ما بال عيني لا تغمض ساعة الا اعترتني عبرة تغشاني

وتتنزن العواطف تارة اخرى في اشعارهم فتوزاي الحكمة والعقل وبخاصة لدى أغلب اشعار الابناء في اجاباتهم على تلومات آبائهم، وفي أغلب اشعار الاباء التي يوصون فيها ابناءهم في لحظات الفراق خاصة، من مثل قول عبدة بن الطبيب: (٣٤)

أبني اني قد كبرت ورابني

بصري وفيه لمصلح مستمتع

إن لسمو العاطفة أثراً كبيراً في الصياغة الشعرية ذلك أن اسلوب الشاعر وسيلته لبث معانيه وعواطفه، كما أن للمفردة في اشعارهم الموصوفة بدقة الاختيار الاثر الكبير في تلك الاساليب، فقد جاءت اغلب مفردات قصائد الابوة والبنوة بعيدة عن التقعر والوعورة والتعقيد والمعاظلة والحشو ذلك انها

كانت قد قدت خاصة بمعانيها بصورة دقيقة، وقد كان كثير من تلك الالفاظ يحمل معانيه المباشرة، ولم يعسر فهم أغلب الفاظهم في ذلك العصر بل في عصرنا نحن ومن امثالها، قولهم:

غذوتك مولوداً – تخاف الردى نفسي عليك– لم ترع حق ابوتي – لوى يدي – حنت ظهري الخطوب – مشيي ضعيف – غيبت كاسبهم.....

غير ان الفاظاً غيرها جاءت، غالباً ما يعسر فهمها في عصرنا هذا من امثال : آض كالفحال – شيظماً – غارب الفحل – دهماً جلاداً – اشاء نخيل – حجري قدرك جانبه ...[٣٥]

ولعل أغلب هذه الالفاظ كان مأنوساً في عصره وبيئته.... أما طوابع هذه الاشعار الفنية فلا تختلف كثيراً عن طوابع الاشعار الاخرى التي سادت في عصرها فهي منها، غير أن ملاحظة سريعة تبين كثرة الوصف والتشبيه ملفتة للنظر، فمن الوصف ما جاء في وصف مظاهر حسية وحالات نفسية، منها المباشر ومنها غير المباشر من مثل: الموت حتم مؤجل وحمامة هنوف، وحسر الحواصل وعبرة لا تقلع.... أما التشبيهات فاغلبها تقليدية مثل : بنيات كزغب القطا ومثل الفرخ أعظمه واصبحت يداك يدي ليت وجمعتها دهماً جلاداً كأنها اشاء نخيل وكان الحباب كالشهاب وغيرها... ان هذه الاوصاف والتشبيهات مختارة من اديم واقعهم وبيئتهم يعبرون فيها عن معاناتهم ويجسدون تجاربهم وبخاصة في ميدان هو اشد ما يكون حاجة الى التصوير والتشبيه، وهناك فنون بلاغية اخرى كالاستعارات وغيرها لا يسع المجال لذكرها هنا فقد جلت هي عن نفسها من خلال النصوص التي وردت فيها ....

الخلاصة:

وبعد فان موضوع الابوة والبنوة موضوع واسع غير أن الشعر في عصر صدر الاسلام لم يسعفنا بكم كبير من النصوص بحسب اطلاعنا وما بين ايدينا منه يبين حقيقة هي أن الميل الفطري في الاباء الى الابناء حقيقة استقرت في النفوس، ولقد نشأ القوم في ذلك العصر على فضائل الاخلاق بما زودهم الاسلام به من قيم سامية لذلك فان ما وصل من شعر يبين مشاعر الاباء تعكس الفطرة السليمة التي لم تشبها شائبة.

وان ما بدر من اشعار لهم في اتهامهم ابناءهم بالعقوق لانهم تركوهم قاصدين الى الجهاد فليس في حقيقته عقوقاً، ان هو الا شعور ينتاب الاب المربي الذي ينتظر ثمرة غرسه حتى حقق الرسول الاعظم لمن هم بحاجة الرعاية ما يبتغون وجعل ذلك جهاداً، ولم يحد الخلفاء الراشدون عن نهج قائدهم الاعظم في هذا الميدان وكل ميدان، أما الابناء العاقون على الحقيقة فلم نجد لهم ذكراً الا من لم ينشأ على مبادئ هذا الدين وشذت به فطرته عن السبيل القويم كالذي حصل في عقوق منازل أباه فرعانا وعقوق خليج اباه منازلاً حتى قال في الاخير الامير الذي تقاضيا عنده: عققت فعققت، أما مشاعر الابناء فكانت بين بث الحزن على الفراق وتبيان للحقيقة في اتهام الاباء اياهم بالعقوق، ولم يقصد أغلب الابناء في ذلك الا البر بالدين وبالوالدين... تلك هي خواطر سجلت لتبين حالات من مشاعر الاباء والابناء في عصر صدر الاسلام وسجلها الشعر لهم عرفاناً بفضل هذا الدين على الانسانية.

الهوامش:

١-المعجم الوسيط، ٧٢/١.

٢-ديوان الحماسة، ابو تمام، تح د. عبدالمنعم احمد صالح، ٢٦٠.

٣-ينظر: م.ن: ٢٦٥، الرئمان: العطف والود والنتاج الولادة.

٤-م.ن: ٨٤.

٥-م.ن: ٨٩ وتروى للمعلي العبدي وهي اسلامية.

٦-م.ن: ٢٥٣.

٧-الممتع في صنعة الشعر، عبدالكريم النهشلي: ٢١٦.

٨-حماسة ابي تمام: ٢١٣.

٩-ينظر الامالي لابي علي القالي: ١٩٧/٢.

١٠- الجامع لاحكام القرآن، القرطبي: ٣٢٨/١٣.

١١- ينظر الترغيب والترهيب للمنذري: ٢٢٠/٥.

١٢- ينظر نيل الاوطار للشوكاني: ٢٤٨/٧ ورياض العالمين للنووي: ١٢٩-١٤٠.

١٣- حماسة ابي تمام: ٢١٢ وتروى لامية بن ابي المصائب.

١٤- م.ن: ٤٥٨.

١٥- ينظر حماسة ابي تمام بشرح التبريزي: ١٨٢/٢ هـ٤.

١٦- ذيل الامالي والنوادر: ١٠٨

١٧- رك جانبه: انهار او تهدم.

١٨- الاصابة: ٦٥/١.

١٩- ينظر: ذيل الامالي والنوادر: ١٠٩.

٢٠- الاصابة: ٣٩٠/٣ وينظر الاغاني: ١٩٠/١٣.

٢١- حماسة ابي تمام: ٦١١.

٢٢- سنن ابن ماجة:٩٣٠/٢.

٢٣- رياض العالمين: ١٣٢.

٢٤- حماسة ابي تمام: ٨٧.

٢٥- م.ن: ٨٤.

٢٦- الاصابة : ٤٢/٣ وينظر ديوان الهزليين، شعر ابن خراش الهزلي في ابنه: ١٧٠/٢.

٢٧- ديوان الهزليين: ¼-٩.

٢٨- ديوانه: ١٩٢.

٢٩- العمدة: ١٥٣/٢.

٣٠- نهاية الادب: ٤٠٣/١٨.

٣١- المحاسن والمساوئ: ٥٥١ وكنز العمال: ٣١٠/٨.

٣٢- المحاسن والمساوئ: ٥٥١ وكنز العمال:٣١٠/٨.

٣٣- التعازي، المدائني، تحقيق د. ابتسام مرهون صفار: ٥.

٣٤- شعره:٢١.

٣٥- آض: رجع او صار، الفحال: ذكر النمل، شيظم: الطويل. غاري، ما بين السقام والعنق، جلاداً: صلاباً، اشاء نخيل: صغارها، حجري قدرك جانبه: انهار قوامي وتهدم.

المصادر:

١. الاصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢هـ)، حققة علي محمد البجاوي، دار النهضة، مصر، القاهرة ، (١٣٩٢-١٩٧٢).

٢. الاغاني، ابو فرج الاصفهاني، (ت ٣٥٦ هـ) نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٦٣(هـ).

٣. الترغيب والترهيب في الحديث الشريف، عبدالعظيم المنذري، (ت ٦٥٦ هـ)، حققه محمد محي الدين عبدالحميد.

٤. ديوان الحماسة، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (٢٣١هـ)، بشرح العلامة القبريزي، دار القلم، بيروت ، (د.ت).

٥. ديوان الحماسة، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (٢٣١هـ)،برواية الجواليقي (ت٥٤٠هـ)، حققه عبدالمنعم احمد صالح دار الرشيد، بغداد، (١٩٨٠).

٦. ديوان الهذليين، الدار الوطنية للطباعة والنشر (١٩٦٥)، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، (القاهرة، ١٩٥٠).

٧. رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، محي الدين النووي الشافعي، حققه عبدالله احمد ابو زينة، دار العلوم الحديثة، بيروت (د.ت).

٨. سنن ابن ماجه، اليابي الحلبي، (١٩٥٤).

٩. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابو الحسن بن رشيق القيرواني، (ت٤٥٦هـ) حققه محمد محي الدين عبدالحميد، دار الجيل طـ ٥ بيروت ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

١٠. كتاب ذيل الاماني والنوادر، ابو علي القالي، دار الفكر (د.ت)، .

١١. كنز العمال في سنن الاقوال والافعال، المتقي الهندي، مكتبة التراث الاسلامي، حلب (د.ت).
١٢. المحاسن والمساوئ، البيهقي، دار صادر، بيروت، (١٩٦٠م).
١٣. المعجم الوسيط، اشرف على طبعه عبدالسلام هارون، المكتبة العليمة، طهران (د.ت).
١٤. الممتع في صنعة الشعر، عبدالكريم النهشلي، حققه عباس عبدالستار، دار الكتب العلمية طـ ١ بيروت (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).
١٥. نهاية الارب في فنون الادب، النويري، طبعة دار الكتب المصرية (١٩٢٤م).
١٦. نيل الاوكار وشرح منتقى الاخبار، محمد علي بن الشوكاني، ط الاخيرة، البابي الحلبي (د.ت).